آثار العولمة الثقافية على الهوية الثقافية للشعوب العربية

شابني سمية
جامعة الجزائر 2

1. مقدمة:

يعد مفهوم العولمة من أكثر المفاهيم التي أثارت جدلا ونقاشا واسعا بين المفكرين سواء من حيث التعريف أو من حيث النشأة التاريخية، أو من حيث الآثار المترتبة عنها على دول وشعوب العالم، والعالم العربي بشكل خاص، وعلى الرغم من صعوبة إعطاء مفهوم دقيق للعولمة بسبب الغموض والتعقيد الذي يلازم هذا المفهوم، وعدم وجود تناسق بين النظري والواقع يسمح بإعطاء مفهوم محدد لها، إضافة إلى تعدد مفاهيم العولمة بتعدد أبعادها ومستوياتها نظرا لتغيراتها الدائمة والمستمرة وعدم وصولها إلى الاكتمال؛ إلاّ أننا نجد أن معظم المختصين يتفقون على أن العولمة تعني زوال الحواجز الثقافية والاقتصادية والسياسية بين الدول، وتفسر بأنها تحويل للظواهر المحلية إلى ظواهر عالمية أكثر انتشارا، ومن ثم فهي تعد من أكبر التحديات التي تواجهها الهوية العربية الإسلامية في الفترة الراهنة، حيث نجد أن أخطر صراع تواجهه الشعوب العربية المسلمة هو صراع الهوية في زمن العولمة.

إن الشيء الذي يجب الوقوف عنده هو أن العولمة كظاهرة اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية ترتبط أساسا بالمفهوم الاقتصادي الرأسمالي وفق الرؤية الأمريكية المهيمنة التي تسعى جاهدة إلى تدويل هذا النظام من أجل السيطرة على الاقتصاد العالمي وبالتالي السيطرة على كافة أشكال ومظاهر التطور الإنساني، ومن ثم إخضاع الشعوب الضعيفة إلى هذه السيطرة، ومن المؤكد أن السيطرة الاقتصادية ما هي إلاّ منفذ للوصول إلى السيطرة على مقومات الهوية الثقافية للشعوب المسيطر عليها، باعتبار أن الهوية الثقافية هي أهم ما يميز الأمم عن بعضها البعض وهي الكيان الذي يحمي الأمة من المخاطر الخارجية التي تستهدف وحدتها وبقائها، فهي تمثل الكيان الشخصي والروحي للفرد وهي المحرك الرئيسي لأي حضارة أو أمة.

وقد شهدت الأمة العربية الإسلامية في السنوات الأخيرة غزوا ثقافيا واسع النطاق ينضوي تحت مضلة العولمة، حيث اخترق الأعراف والعادات والتقاليد العربية المتشبعة بالدين الإسلامي كما اخترق كل الميادين والمجالات، في ظل الثورة التكنولوجية الهائلة التي يشهدها عالمنا المعاصر والذي تتحكم في مفاتيحه القوة الامريكية.

وفي ظل مختلف الصراعات التي يشهدها عالمنا العربي الاسلامي سوف نحاول من خلال هذه الورقة معالجة أثر العولمة الثقافية على الهوية الثقافية للشعوب العربية المسلمة، وهذا عن طريق الإجابة على مجموعة من التساؤلات التي يطرحها موضوع البحث الحالي، والتي يمكن تحديدها في الاشكالات التالية:

ما هي حقيقة العولمة والعولمة الثقافية؟ هل تتلاشى الهوية الثقافية في زمن العولمة؟ أو بصيغة أخرى ما هي مخاطر العولمة الثقافية على الهوية العربية ؟ وكيف يمكن التعامل مع العولمة الثقافية من أجل الحفاظ على الهوية الثقافية للشعوب العربية؟

2. مفهوم العولمة:

يرتبط مفهوم العولمة في أذهان الكثير من الناس بالتقدم والرقي والانفتاح الاقتصادي، وعلى الرغم من أن مفهوم العولمة لا يقتصر على الجانب الاقتصادي بل يتعداه ليشمل الجوانب الاجتماعية والثقافية والبيئية والسياسة، إلاّ أن الجانب الاقتصادي يعد من أبرز مظاهر العولمة.

إن العولمة كمصطلح مرتبط بالمفهوم الاقتصادي الرأسمالي ظهر في بداية التسعينيات باعتبارها موجة اقتصادية تلت الثورة الصناعية، وهي أعلى مراحل الرأسمالية الجديدة التي أفرزتها المعلوماتية وما رافقها من تطور في مجالي الاتصال والمعلومات.

والعولمة هي ترجمة لكلمة (MONDIALISATION) الفرنسية، والتي تعني جعل الشيء على مستوى عالمي، أي نقله من محدود المراقب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كل مراقبة؛ والمحدود هنا هو أساسا الدولة القومية التي تتميز بحدود جغرافية وبمراقبة صارمة على مستوى الجمارك: تنقل البضائع والسلع، إضافة إلى حماية ما بداخلها من أي خطر أو تدخل أجنبي، سواء تعلق الأمر بالاقتصاد أو السياسة أو الثقافة، أما اللامحدود فالمقصود به العالم أي الكرة الأرضية، فالعولمة إذن تتضمن معنى إلغاء حدود الدولة القومية في المجال الاقتصادي وترك الأمور تتحرك في هذا المجال عبر العالم وداخل فضاء يشمل الكرة الأرضية جميعها. (1)

والكلمة الفرنسية المذكورة هي ترجمة للكلمة الانجليزية GLOBALISATION التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية، ومفهومها هو تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل، وهذا يعني جعل العالم عالما واحدا موجها توجيها واحدا في إطار حضارة واحدة. (2)

إن مفهوم العولمة تناوله العديد من المختصين الذين اهتموا بدراسة هذه الظاهرة، وفقا لقناعتهم المرجعية والفكرية في مفهوم العولمة، وهذا من ناحية رفضها أو قبولها، مُعَدَاتها أو تأييدها، فضلا عن تعدد صورها فهناك عولمة اقتصادية وعولمة ثقافية وعولمة سياسية وعولمة اجتماعية...الخ.

فالعولمة في الأدبيات الغربية تعني زيادة درجة الارتباط المتبادل بين المجتمعات الإنسانية من خلال عمليات انتقال السلع ورؤوس الأموال وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات. (3)

وقد عرفها أحمد بن راشد بن سعد بأنها تعنى في جوهرها رفع الحواجز والحدود أمام الشركات والمؤسسات والشبكات الدولية الاقتصادية والإعلامية والثقافية كي تمارس أنشطتها بوسائلها الخاصة، وتحل محل الدولة في ميادين المال والاقتصاد الثقافة والإعلام [4] ؛ كما عرفها محمد عابد الجابري بأنها تزايد التشابك والترابط بين الدول والمجتمعات والتفاعل بينها في مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصال، وعلى المستويات كلها بما يسمى علاقات دولية وهي من إفرازات الثورة المعلوماتية لما بعد الاستعمار[5]؛ ويعرفها انطوني قيدنز (1990) Antony Giddens بأنها مرحلة جديدة من مراحل بروز الحداثة وتطورها، تتكشف فيها العلاقات الاجتماعية على الصعيد العالمي بحيث يحدث تلاحم غير قابل للفصل بين الداخل والخارج ويتم فيها ربط المحلي والعالمي بروابط اقتصادية وثقافية وسياسية وإنسانية.[6]

كما ينظر بعض المفكرين إلى العولمة بأنها العملية التي يتم بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الشعوب، تلك العملية التي تنتقل بها الشعوب من حالة الفرقة والتجزؤ إلى حالة الاقتراب والتوحد ومن حالة الصراع إلى حالة التوافق، ومن حالة التباين والتمايز إلى حالة التجانس والتماثل، وهنا تتشكل قيم عالمية موحدة ويتشكل وعي عالمي يقوم على مواثيق إنسانية عامة. [7]

من خلال استعراضنا لهذه المجموعة من التعريفات نلاحظ أنها ركزت على الجانب النظري للعولمة أي ما يجب أن تكون عليه من خلال المبادئ التي جاءت بها، لكن الواقع يثبت أن ظاهرة العولمة هدفها الرئيسي هو خدمة مصالح الدول القوية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية التي تهدف إلى السيطرة على الاقتصاد العالمي وبالتالي السيطرة على كافة أشكال ومظاهر التطور الإنساني، بحيث نجد أن العديد من المفكرين يرون أن العولمة تمثل حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء، في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها، وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير متكافئ، ومن المؤكد أن هذه الهيمنة والسيطرة لن تقتصر على الجانب الاقتصادي فقط، فالعولمة نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد لتعولم الإنسان في كل مجال، فهي تستهدف اختراق خصوصياته القومية والفردية، قيمه وأخلاقه، نمط عيشه ومناهج تفكيره...، وهذا لأن الهيمنة الاقتصادية لن تتم ما لم ترافقها هيمنة وسيطرة على كل المجالات، وعلى رأسها المجال الثقافي لأن الهيمنة على الخصوصيات الثقافية للشعوب يعد أكبر تهديد لهويات هذه الشعوب، فالعولمة الثقافية تعد أخطر أشكال العولمة خاصة على المجتمعات العربية المسلمة كونها تستهدف المساس بالهوية القومية الإسلامية ومقوماتها الرئيسية اللغة والدين، وحتى ندرك المخاطر التي تشكلها العولمة الثقافية علينا أولا تحديد مفهومها ومدلولاتها.

3. مفهوم العولمة الثقافية:

العولمة الثقافية كما حددها المختصون هي عبارة عن غزو ثقافي يمس ذاتية الأفراد والأمم وتحمل خطابا ثقافيا خاصا لشعوب العالم مفاده أنه لا مجال للتعدد الثقافي، بحيث تكون هناك ثقافة واحدة وهي الثقافة المعولمة التي تسيطر على كل الثقافات؛ والعولمة الثقافية كما يدعي روادها هي انتقال من مرحلة الثقافة الوطنية إلى ثقافة عليا جديدة "عالمية"، ولكن في حقيقة الأمر ما هي إلاّ اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات الأخرى، وهي اختراق تقني يستخدم وسائل النقل والاتصال لهدر سيادة الثقافات الأخرى للشعوب[8]، وقد حددها عبد الخالق عبد الله بأنها ظاهرة تسعى إلى فرض قيم ثقافية غربية تسود العالم كله، وهذه القيم تتعارض مع خصوصيات الشعوب الثقافية والحضارية. [9]

أما إذا عدنا إلى مفهوم العولمة الثقافية في نظر المختصين والعلماء العرب والمسلمين فنجد أن جلهم يجمعون على أن العولمة الثقافية تهدف إلى القضاء على القوميات وتحويلها إلى كيانات ضعيفة، وإيجاد النزاعات العرقية والطائفية من خلال السعي للتذويب الحضاري لسائر الحضارات التي تحمل قيما مضادة لقيم الحضارة الغربية وعلى رأسها الحضارة الإسلامية وقيمها الدينية [10]؛ وفي نفس السياق يشير الأستاذ يوسف القرضاوي إلى أن العولمة الثقافية تريد أن تسلخنا من جلدنا، وأن تنزعنا من هويتنا، أو أن تنزع منا هويتنا وأن تنفث في أمتنا بضائعها الفكرية ومعلباتها الثقافية الفاسدة، فهو يرى أن العولمة الثقافية هي من أخطر أشكال العولمة وأبعدها أثرا، فهي تهدف إلى فرض ثقافة أمة على سائر الأمم، أو ثقافة الأمة القوية الغالبة على الأمم الضعيفة المغلوبة، وبعبارة أخرى فرض الثقافة الأمريكية على العالم كله، شرقية وغربية، ومسلمة، ووسيلته إلى هذا الغرض الأدوات والآليات الجبارة عابرات القارات والمحيطات من أجهزة الإعلام والاتصال، والتأثير بالكلمة المقروءة والمسموعة، المرئية بالصوت والصورة، وشبكة المعلومات العالمية وغيرها. [11]

فعلى الرغم من محاولة المصدرين للعولمة الثقافية تصويرها لنا على أنها تحرر من الولاء لثقافة ضيقة ومتعصبة إلى ثقافة عالمية واحدة يتساوى فيها الناس والأمم جميعا، تُحرر من التعصب لايدولوجيا معينة إلى الانفتاح على مختلف الأفكار من دون أي تعصب أو تشنج (جلال أمين)، لكن الواقع يثبت أن هذه الثقافة هي الثقافة الأمريكية الغربية التي تتناقض مع ثقافتنا الإسلامية والتي تهدف إلى تكريس الاستتباع الحضاري وتسطيح الوعي واختراق الهوية الثقافية للأفراد والجماعات والأمم [12]، عن طريق زرع القيم والأفكار النفسية والثقافية ومن ثم السلوكية التي تعبر عن الثقافة الغربية، وهذا بهدف اختراق هذه المجتمعات وإسقاط عناصر الممانعة لديها، مما يؤدي بدوره إلى تأسيس هوية ثقافية وحضارية جديدة مناقضة ومعادية لهويتنا العربية الإسلامية التي تتميز بسمات ومميزات تختلف عن باقي هوية المجتمعات الغربية الإسلامية.

4. مفهوم الهوية الثقافية:

على الرغم من أن كل باحث تناول مفهوم الهوية وفقا للميدان أو العلم الذي يبحث فيها، إلاّ أن جميع العلوم تتبنى مفهوما متقاربا للهوية وتتفق على أن أهم شيء في تعريف الهوية هو الخصوصية والتميّز عن الغير؛ فنجد علماء الكلام والعقائد يعرفون الهوية على أنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق [13]، والهوية تطلق على ثلاثة معاني: التشخص، والشخص ذاته والوجود الخارجي. [14]

ويعرفها علماء الفلسفة على أنها حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره، وتسمى أيضا وحدة الذات؛ أما علم الاجتماع فالهوية عنده هي عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره، أي تحديد حالته الشخصية، وهي تعني تحديد المميزات الشخصية للفرد من خلال مقارنة حالته بالخصائص الاجتماعية العامة، ولم يختلف مفهوم الهوية كثيرا عند علماء النفس بحيث تعرف على أنها حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره، وتسمى أيضا بوحدة الذات. [15]

من خلال استعراضنا لهذه المفاهيم التي حُدِّدَ بها مفهوم الهوية يمكن القول أن الهوية بشكل عام تشتمل على الامتياز عن الغير والمطابقة للنفس، أي خصوصية الذات وما يتميز به الفرد والمجتمع عن الغير من خصائص ومميزات وقيم ومقومات، فميزات الفرد هي هويته وميزات الجماعة هي هوية الجماعة؛ والهوية هي السمات المشتركة التي تتميز بها جماعة معينة من الناس وتعتز بها، أو هي مجموع المفاهيم العقائدية والتراثية لجماعة ارتبطت بتاريخ وأصول إنسانية ومفاهيم فكرية أدت إلى إفراز سلوك فكري وقيمي مترجم بأدب وفن وفلكلور جعل من تلك الجماعة ذات شخصية متميزة عن غيرها، فالهوية إذن هي مجموع السمات الروحية والفكرية والعاطفية الخاصة التي تميز مجتمعا بعينه، وطرائق الحياة ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات وطرائق الإنتاج الاقتصادي والحقوق...الخ. [16]

والهوية الحضارية والثقافية لأي شعب أو أمة هي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارته عن غيرها من الحضارات [17]، والهوية الثقافية تمثل كل الجوانب الحياتية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية والمستقبلية لأعضاء الجماعة الموحدة التي ينتمي إليها الأفراد بالحس والشعور الانتمائي إليها. [18]

وبما أننا بصدد دراسة تأثير العولمة الثقافية على الهوية الثقافية للشعوب العربية المسلمة فمن الضروري التطرق إلى تحديد مفهوم الهوية الإسلامية العربية ومقوماتها التي تعتبر الهدف المباشر للعولمة الثقافية بكل سلبياتها وايجابياتها.

إن مفهوم الهوية العربية الإسلامية لا يخرج عن نطاق المفهوم العام للهوية ولكنها تتميز بسمات ومميزات تختلف عن باقي الهويّات، فالهوية الإسلامية تعني الإيمان بعقيدة هذه الأمة والاعتزاز بالانتماء إليها واحترام قيمها الحضارية والثقافية وإبراز الشعائر الإسلامية والاعتزاز والتمسك بها. [19]

ولعل أبرز سمات الهوية العربية الإسلامية هي: التميز فالهوية الإسلامية متميزة عن غيرها من الهويات وهذا ما جعل الوطن العربي أحد أهم حقول التجارب لظاهرة العولمة الثقافية والأكثر استهدافا وهذا ما يتجلى واضحا من خلال الغزو الثقافي عن طريق حملات الاستشراق والتنصير التي يقوم بها الآباء المسيحيون والكنائس المسيحية، بالاعتماد على وسائل الاتصال والإعلام، والمعلوماتية بمختلف أشكالها [20]، فبقاء هذا التميز يعطي للأمة العربية الإسلامية مقومات بقائها، ويحفظ لها ثقافتها وخصوصيتها، فلا ينصهرون في ثقافات وهويات الأمم الأخرى.

ومن بين الميزات والسمات التي تميز الهوية الإسلامية أنها تحدد لحاملها وبكل دقة ووضوح وظيفته وهدفه وغايته في هذه الحياة؛ ومن سمات الهوية الإسلامية أيضا أنها تجمع وتوحد تحت لوائها كل المنتسبين إليها وتربط بينهم برباط وثيق، وهذا ما يتضح في قوله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. [21]

5. مقومات الهوية العربية الإسلامية:

1) **الدين الإسلامي أو العقيدة الإسلامية:** يعتبر الدين أول عنصر من عناصر الهوية الثقافية العربية الإسلامية وتعتبر العقيدة الإسلامية مصدر أساسي لحضارتنا وفكرنا وسلوكنا وولائنا ونهضتنا، فالدين الإسلامي هو المقوم الأكبر الذي يجمعنا مع مختلف شعوب وقوميات وأمم العالم الأخرى التي تدين بالدين الإسلامي حيث ينضوي تحت لوائها كل مسلم أيا كان لونه أو لغته أو المكان الذي يتواجد فيه. [22]

2) **اللغة العربية:** تعد اللغة اللسان الثقافي الأساسي للهوية الثقافية للأفراد والشعوب، وهي من بين أهم المميزات التي تميز بين ثقافة الشعوب العربية والأمم الأخرى، وهي أساس للتواصل وللاحتكاك وإثبات الهوية وتأكيد وجودها، وتعتبر اللغة العربية معلما أساسيا بارزا من معالم الهوية الإسلامية يشترك فيها جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم وأعرافهم باعتبارها لغة القرآن الكريم، كما أن اللغة العربية قاسم مشترك تجمع الشعوب العربية وتوحدها وتميزها عن غيرها من الأمم.

3) **التاريخ والماضي المشترك:** بحيث يمثل التاريخ والماضي المشترك للأفراد والشعوب عنصرا رئيسيا من عناصر الهوية، فالشعوب العربية المسلمة يربطها تاريخ مشترك، ساهم في صياغته أبناء هذه الأمة وكانت لهم محطات مضيئة مشتركة ساهمت بشكل كبير في تغيير مجرى العديد من الأحداث التي مرت بها الشعوب العربية المسلمة، كما يعتبر التاريخ والماضي المشترك من بين الأسس التي تساهم في الوقوف على الحقائق، وتستند عليه الدول والشعوب لبناء الحاضر والتطلع إلى المستقبل.

4) التراث: وهو أحد المرتكزات الأساسية للهوية، والتراث هو النِتَاج الحضاري الذي ينحدر من خصائص أمة من الأمم المتفاعلة مع البيئة التي نشأت فيها، بكل ما تحتويه من تجارب وأحداث صبغتها بصبغة خاصة، وأسبغت عليها ملامحها الثقافية ومميزاتها الحضارية التي تميزها عن الأمم الأخرى، والتراث هو من المكونات التاريخية للأمم حيث كلما امتد هذا التراث عمقا في التاريخ ترسخ وجود الأمة طبيعيا في كينونتها وهويتها.

5) **العادات والتقاليد والأعراف:** بحيث أن لكل أمة عادات وتقاليد وأعراف تسير عليها شعوبها في مختلف المجالات، فنجد أن الأمة العربية المسلمة يربطها تكوين نفسي اجتماعي مشترك يشمل العادات والتقاليد والسلوكات، والأفراح والأحزان والمناسبات والأعياد، وطريقة اللباس والأكل، والروابط الأسرية ...، بحيث نجد أن هناك تشابها وتقاربا كبيرا بين أبناء الأمة العربية المسلمة، كما نجدها شديدة التمسك والاعتزاز بهذه العادات والتقاليد والصفات، وهي أحد أهم ركائز الهوية العربية الإسلامية.

6) **الوحدة الثقافية المشتركة:** إن هذه الوحدة الثقافية مبنية على المقومات المشتركة التي تربط بين أبناء الأمة الواحدة وعلى رأسها الدين واللغة والماضي التاريخي والتراث المشترك، إن هذه المقومات التي تجتمع وتشترك فيها شعوب الأمة العربية الإسلامية تجعلها تنفرد بثقافة خاصة وفلسفة متميزة في النظر إلى الكون والخلق والحياة والمجتمع، وطبيعة سير هذه الحياة والقوانين والسنن التي تحكمها، والمصير الذي ستنتهي إليه؛ فهذه الوحدة والعوامل الثقافية التي تشترك فيها شعوب الأمة العربية الإسلامية تجعلهم يتميزون عن باقي الأمم والشعوب والحضارات 23.

7) **التمسك والاعتزاز بالهوية العربية الإسلامية:** ويعد هذا المقوم من الركائز الأساسية والذي بدونه أو بهشاشته تكون الهوية معرضة لخطر الذوبان والانصهار في الهويات الأخرى وبالتالي السقوط الحضاري لهذه الهوية، فأي تضييع أو تهاون في موضوع الهوية يؤدي بالأمة إلى حالة من الشعور بمركب النقص تجاه الأخر القوي أو الغالب، حيث أنه يعتقد فيه الكمال، وهذا ما يقود الأمة إلى القابلية للاستعمار وهو الطريق الأكبر والأعظم في طريق السقوط الحضاري للأمة. [24]

إن هذه المقومات التي تم التطرق إليها هي الأساس الذي تقف عليه هوية الأمة العربية الإسلامية، وهي التي تبرز خصوصياتها الحضارية والثقافية وتجعلها تتفرد وتتميز عن باقي حضارات وثقافات الأمم والشعوب الأخرى وبما أن العولمة الثقافية تهدف بالأساس إلى القضاء على الخصوصية والتفرد فهي كما يدعي مسوقوها الانتقال من حقبة الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عليا هي الثقافة العالمية أو الكونية، ومن المؤكد أن هذه الثقافة العالمية التي ستسود العالم هي الثقافة الغربية والأمريكية بشكل محدد ، كونها المالكة لآليات ووسائل العولمة بمختلف أشكالها، فالمفهوم الثقافي للعولمة ارتبط بفكرة التوحيد الثقافي الذي يتم عن طريق استغلال ثورة وشبكة الاتصالات العالمية وهيكلها الاقتصادي الإنتاجي

والمتمثل في شبكة نقل المعلومات... من أجل توصيل الأفكار الثقافية العَوْلمية التي يراد لها الشيوع والذيوع، والمتمثلة في الثقافة الأمريكية الغربية التي تتناقض أسسها مع الثقافة العربية الإسلامية.

ومن هذا المنطلق فإن العولمة الثقافية تهدف إلى تحطيم القيم والهويات التقليدية للثقافات الأخرى والترويج للقيم والمفاهيم الغربية، واعتبار هذه القيم والمفاهيم هي وحدها المقبولة كأساس للتعاون في ظل العولمة؛ ومن ثم فإن العولمة هي تهديد مباشر وخطر على مقومات هويات الشعوب والأمم وعلى رأسها الشعوب العربية التي يوحدها الدين الإسلامي المناقض للمبادئ التي أتت بها العولمة الثقافية الغربية، فالإسلام يعترف بالتعددية الثقافية والفكرية والحرية الدينية، كما يعترف باختلاف الأمم وبحق كل أمة في البقاء والدفاع عن خصوصياتها وموروثاتها، وحتى نتمكن من الوقوف في وجه المخاطر التي تشكلها العولمة الثقافية على الهوية العربية الإسلامية لابد من التعرف على هذه المخاطر أولا.

6. مخاطر العولمة على الهوية الثقافية للشعوب العربية :

إن محددات الهوية الثقافية للشعوب والأفراد غالبا ما تنحصر في ثلاث أسس رئيسية وهي الدين أو العقيدة، اللغة أو اللسان، والتراث الثقافي، وغالبا ما تكون هذه العناصر الثلاثة هي الهدف الرئيسي للعولمة الثقافية، فالعولمة هي إرادة للهيمنة وقمع وإقصاء للخصوصية، واختراق لخصوصيات ومقومات هوية الشعوب والأمم، بهدف تعميم نمط حضاري يخص بلدا بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية على بلدان العالم أجمع وعلى رأسها بلدان الوطن العربي، لذلك فإنها تشكل خطرا كبيرا على ثوابت ومقومات الهوية العربية.

1.الدين (العقيدة):

تعد العقيدة الإسلامية وشريعتها ونظام أخلاقها النقيض الوحيد الشامل لفلسفة العولمة الهادفة إلى تنصير العالم، باستخدام كل الوسائل المنافية لمبادئ الدين الإسلامي، وبما أن الدين يعد الثابت الأساسي للهوية الثقافية للشعوب العربية، فهو المستهدف الأول للعولمة الثقافية من خلال الغزو الثقافي عن طريق حملات الاستشراق والتنصير التي يقوم بها الآباء المسيحيون والكنائس المسيحية، بالاعتماد على وسائل الاتصال والإعلام، والمعلوماتية بمختلف أشكالها [25]، وبما أن الدين الاسلامي هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية، وهو أكثر الأديان السماوية التي تعترف وتحترم الأديان السماوية الأخرى، فإنه المستهدف الأول من العولمة الثقافية التي تعتبر أحد أشكال التنصير الغير مباشرة والتي تحاول جاهدة تشويه صورة الإسلام والمسلمين في نظر العالم وحتى المسلمين أنفسهم عن طريق وصفهم بالإرهابيين والمتطرفين.

2. اللغة العربية:

تعد اللغة اللسان الثقافي الأساسي للهوية الثقافية للأفراد والشعوب، وهي مقوم رئيسي للأمة العربية المسلمة ، وهي عامل رئيسي في صياغة وحدة الأمة فيمكن القول أن اللغة والأمة أمران متطابقان، فهي أداة تفكيرها وهي التي تبيّن وتحدد المفاهيم والقيم والمعاني؛ ولعل أن أكبر تأثير للعولمة الثقافية على اللّغة هو تغيير المفاهيم باصطناع مصطلحات جديدة لم يتم تداولها من طرف الشعوب وبذلك تجد ميدانها في خدمة واضيعيها.

وبما أن الثقافة المعولمة هي الثقافة الغربية وبشكل أكبر الأمريكية فإننا نجد أن اللغة الانجليزية هي اللغة العالمية الأولى التي سيطرت على جميع اللغات مع الهيمنة الاقتصادية والإعلامية الأمريكية ومع انتشار شبكة الانترنت بهذه اللغة التي تستخدم كلمات وعبارات انجليزية تعبر عن الثقافة الأمريكية والقيم الاستهلاكية التي في غالبها لا تتناسب مع قيم الأمة العربية المسلمة، خاصة وأنها أصبحت اللغة الثانية في معظم الدول العربية وأصبح التحدث بها والتعامل بها مصدر فخر واعتزاز للشباب العربي بشكل خاص باعتبارهم أولى ضحايا العولمة؛ وقد أشار الأستاذ يوسف القرضاوي إلى أخطار العولمة الثقافية على اللغة بقوله: "إن العولمة تريد أن يكون أدبنا تابعا لأدبهم، وشِعرنا تابعا لشعرهم، ونظرتنا إلى الوجود والإنسان تابعة لنظرتهم، حتى لغتنا التي نعتز بها لكونها لغة كتاب الله المنزل يريدون أن لا نعتمد عليها ولا نركن إليها، وأن يكون نصف كلامنا من لغاتهم نقحمها إذا تكلمنا، وإذا كتبنا ونعلم بها أبنائنا في جامعاتنا" [26]، وللأسف أنه الواقع الذي آلت إليه معظم الدول العربية بحيث نجد أبناءها يتفاخرون باللغة الانجليزية عوض التفاخر بلغتهم الأصلية.

3. التربية والتعليم:

تعتبر التربية والتعليم الأساس الذي ترقى به الأمم في ظل إرساء تكامل بين الهوية الثقافية وما يشهده العلم من تطور، لكن الملاحظ أن العولمة تفرض صياغة المناهج والبرامج التعليمية في المدارس والجامعات والمعاهد وفقا للتطور العالمي الديمقراطي في الدول المتطورة علميا وتكنولوجيا، بحيث تكون هذه المناهج والبرامج موجهة وفقا لتطلعات وتوجهات الدول الغربية، وفي كثير من الأحيان ما تكون مخالفة للقيم والثوابت الدينية للأمة العربية الإسلامية وتمس بكيانها الاجتماعي والثقافي خاصة ما تعلق منها بالدين الإسلامي، حيث نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية شنت حملة كبيرة للضغط على الحكومات العربية الإسلامية لتغيير مناهجها التعليمية تحت دعاوي الإصلاح والتطوير وبما يتناسب مع المصالح والرؤى الغربية، وعلى حساب الرؤى والثوابت الإسلامية، فهي ترى أن المناهج والمواد التي تدرس الدين الإسلامي وفي كافة المراحل الدراسية أساس ومنبع أصيل للفكر الإرهابي الذي أصبح لصيقا ومرادفا للإسلام.

ونجد أن أغلبية الدول العربية والإسلامية قد انصاعت لهذه الضغوط وعمدت إلى إلغاء كل المواد والأفكار التي تشير إلى مواضيع لا يرتضيها الغرب مثل الجهاد وما يتعلق بالمشركين أو ما يشير إلى بني إسرائيل، وحتى ولو كانت هذه الأفكار والمواد ثابتة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بحجة أنها تحث على الكراهية والعنف، كما نجد أن أغلب البرامج والمناهج المطبقة في المدارس والجامعات والمعاهد العربية مستوردة من الدول الغربية بدعوى مسايرة التطور العلمي الذي تشهده البرامج التعليمية لهذه الدول، دون الأخذ بعين الاعتبار أنها صممت وفقا للثقافة والتفكير الغربي الذي يهدف إلى سلخنا مقوماتنا وخصوصياتنا النابعة من ديننا الإسلامي.

7. كيفية التعامل مع العولمة الثقافية من أجل الحفاظ على الهوية الثقافية للشعوب العربية:

يعد الدين الإسلامي باعتباره الثابت والمقوم الأساسي لهوية الأمة العربية وباعتباره المصدر الأساسي لحضارتنا وفكرنا وسلوكنا وولائنا ونهضتنا العربية، السبيل الأول للتصدي للغزو الثقافي الذي تتعرض له أمتنا العربية تحت راية العولمة، فالعقيدة الإسلامية تعترف بالتعددية الثقافية والفكرية والحرية الدينية، كما تعترف باختلاف الأمم وبحق كل أمة في البقاء والدفاع عن خصوصياتها وموروثاتها، كما تحث على العمل والجد والتطور والرقي في كل المجالات، كما تدعو إلى الانفتاح على الأخر والاستفادة من تجاربه الناجحة دون المساس بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف، فنجد أن الحضارة الإسلامية استفادت من تجارب الأمم السابقة في مختلف المجالات ولكن بما يخدم أغراضها ولا يؤثر على قيمها ومبادئها الأساسية، فنجد مثلا أن المسلمين أخذوا عن الإغريق العلوم التجريبية ولكنهم لم يأخذوا أساطيرهم الوثنية المنافية للتوحيد الإسلامي وأخذوا عن الهند الفلك والحساب ولم يأخذوا فلسفتهم الإلهية استغناء بالتوحيد فلسفة الإسلام...، لذلك فإن الحفاظ على الهوية العربية مرتبط بمدى تمسك الشعوب العربية الإسلامية بمبادئ الدين الإسلامي لذلك فإن الدول العربية الإسلامية مطالبة حكومة وشعبا بإعادة الثقة للذات الإسلامية التي أحاطت بها الشكوك، حتى أصبحت الشعوب العربية لا تكاد تثق بما تنتجه وتبدعه إلا إذا باركته الحضارة الغربية، وهذا نتيجة مباشرة لتخليها عن مبادئ وقواعد الدين الإسلامي في كل التعاملات الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية... [27]

كما يعد التعليم ركيزة رئيسية ترتكز عليها هويات الأمم والشعوب، فالمؤسسة التربوية والتعليمية لها أكبر الأثر في حفظ الهوية وتعزيز الانتماء إليها، لذلك على الدول العربية إعادة النظر في مضمون المناهج والمواد الأساسية المعتمدة عليها في مؤسساتها التربوية بمختلف أطوارها، والقضاء على استيراد البرامج التعليمة الحاملة لقيم لا تصلح لأمتنا بما أنها نتاج أمة أخرى تختلف عنا في قيمها ومبادئها، وبدلا من الاستيراد يجب العمل على بناء برامج ومناهج تعليمية بالاعتماد على المرجعية الدينية واللغوية والتاريخية لأمتنا العربية المسلمة، فلا بد من بلورة منهج تربوي وعلمي متميز يجمع بين الأصالة والمعاصرة، يهدف إلى تكوين جيل مسلم مستوعب لأسس الشريعة الإسلامية ومتمسك

بمقتضياتها، ومتفتح ومستوعب لعلوم العصر ومتفاعل مع مستجداته وتطوراته، ولن يتحقق ذلك إلاّ بتشجيع البحث العلمي في دولنا العربية وتدعيمه ماديا، فالمطلوب من أمتنا العربية الاهتمام بالنخبة وتبني الكفاءات والمواهب من أبنائها، والاعتماد عليها في قيادة المؤسسات التربوية والتعليمية وإعطاءهم المكانة التي يستحقونها، وتوفير وتسخير أقصى ما يمكن من الإمكانات المادية والمعنوية، من أجل الوصول إلى الأهداف التي يرسمونها ويخططون لها ويرمون لتحقيقها، فالواقع العربي يثبت أن الإمكانات المخصصة للبحث العلمي ضعيفة، حيث نجد أن نسبة الإنفاق في الدول العربية مجتمعة لا تتعدى (0.31) من مجموع دخلها القومي .[28]

ومن المؤكد أن ضعف الميدان العلمي لا محال سيؤثر سلبا على الميدان الاقتصادي وهذا ما يثبته واقع الأمة العربية، فإن أردنا الحفاظ على الهوية الحضارية والثقافية لابد من الاهتمام بالتعليم والاقتصاد والتكنولوجيا، فالمجتمعات الفقيرة الضعيفة المتخلفة عن الركب الحضاري لا يمكنها أن تقاوم وتتصدى للعولمة الثقافية، ولا يمكنها أن تحافظ على هويتها الثقافية وخصوصيتها الحضارية، فإن أردنا أن نتصدى لمخاطر العولمة فلا بد من زراعة غذائنا في أراضينا، والعمل على تكامل صناعاتنا وتجارتنا في الإطار العربي الإسلامي وصولا إلى السوق المشتركة والكتلة الاقتصادية المتكاملة، التي تتعامل مع العولمة من منطلق وبمنطق الاعتماد المتبادل الحقيقي لا الموهوم، فعلى قاعدة التكامل الاقتصادي ينهض التفعيل لمنظماتنا الإقليمية العربية والإسلامية.

وفي المجال الاجتماعي تعد الأسرة المؤسسة الاجتماعية الرصينة والقلعة الحصينة والميزة البارزة والعلامة المضيئة للمجتمعات الإسلامية كونها المجتمعات الوحيدة التي مازالت محافظة على تماسك الأسرة وتماسكها وتآلفها وثباتها، بالرغم من كل المحاولات الغربية لاختراقها ونشر ثقافة الحرية الفردية فيها، فالأسرة تمثل السور الواقي لحماية الأجيال المسلمة، والرمز العظيم من رموز الهوية الإسلامية 29، لذلك يجب الحفاظ على مكونات ومبادئ ومفاهيم وقوانين الأسرة العربية المسلمة، ودعمها في تربية الأجيال وتكوينهم على أسس وقواعد الهوية الاجتماعية والثقافية للأمة العربية الإسلامية باستخدام الدعم المالي للأسر والإعلامي لنشر ثقافة الحفاظ على الهوية والتنشئة الأساسية للهوية الثقافية.

الهوامش و المراجع :

1)- خليل نوري مسيهر العاني (2009): الهوية الإسلامية في زمن العولمة، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، العراق.
2)- محمد عمارة (1) (1999): مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر
3)- خليل نوري مسيهر العاني، مرجع سبق ذكره.
4)- أبو بكر رفيق (2007): مخاطر العولمة على الهوية الثقافية للعالم الإسلامي، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، المجلد الرابع، ديسمبر 2007، (ص 5- 16).
5. محمد عابد الجابري (1998): العولمة والهوية الثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
6)- عبد الناصر جرادات وآخرون (2012): قراءات في العولمة وأثرها على دول وشعوب العالم، المؤتمر العلمي الدولي حول: عولمة الإدارة في عصر المعرفة، من 15 إلى 17 ديسمبر 2012، طرابلس.
7)- صالح سالم زرنوقة (2002): العولمة والوطن العربي، جامعة القاهرة، مصر.
8)- صالح الرقب (2003): العولمة، الجامعة الإسلامية الطبعة الأولى.
9)- عبد الخالق عبد الله (1999): العولمة جذورها وفروعها، وكيفية التعامل معها، عالم الفكر، المجلد 28، العدد 2، أكتوبر- ديسمبر، 1999.
10)- خليل نوري مسيهر العاني، مرجع سبق ذكره.
11)- أبو بكر رفيق، مرجع سبق ذكره.
12)- محمد عابد الجابري، مرجع سبق ذكره.
13)- خليل نوري مسيهر العاني، مرجع سبق ذكره.
14)- نفس المرجع السابق.
15)- محمد عمارة (2) (1981): الأمة العربية وقضية الوحدة، دار الوحدة، الطبعة الثالثة.
16)- يوسف البجيرمي (2012): ثقافة المقاطعة ضرورة عملية لمواجهة الهيمنة، صحيفة البيان الإماراتية، المركز الفلسطيني للإعلام، على الموقع: www.palestineinfo.com.
17)- محمد عمارة (2)، مرجع سبق ذكره.
18)- أسعد السمحراني (2002): ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، دار النفائس، الطبعة الأولى.
19)- خليل نوري مسيهر العاني، مرجع سبق ذكره.
20)- خالد بن عبد الله القاسم (2006): العولمة وأثرها على الهوية، على الموقع: www.islamtoday.
21)- خليل نوري مسيهر العاني، مرجع سبق ذكره.
22)- نفس المرجع السابق.
23)- محسن عبد الحميد (1995): تجديد الفكر الإسلامي، المركز العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.
24)- خليل نوري مسيهر العاني، مرجع سبق ذكره.
25)- خالد بن عبد الله القاسم، مرجع سابق.
26)- محمد عمارة (1)، مرجع سبق ذكره.
27)- محمد عمارة (1)، مرجع سبق ذكره.
28)- خليل نوري مسيهر العاني، مرجع سبق ذكره.
29)- محمد زغو (2010): أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ديسمبر 2010، ص (93-101).